طفولة بلا مطر بين المتخيل والبعد الدرامي

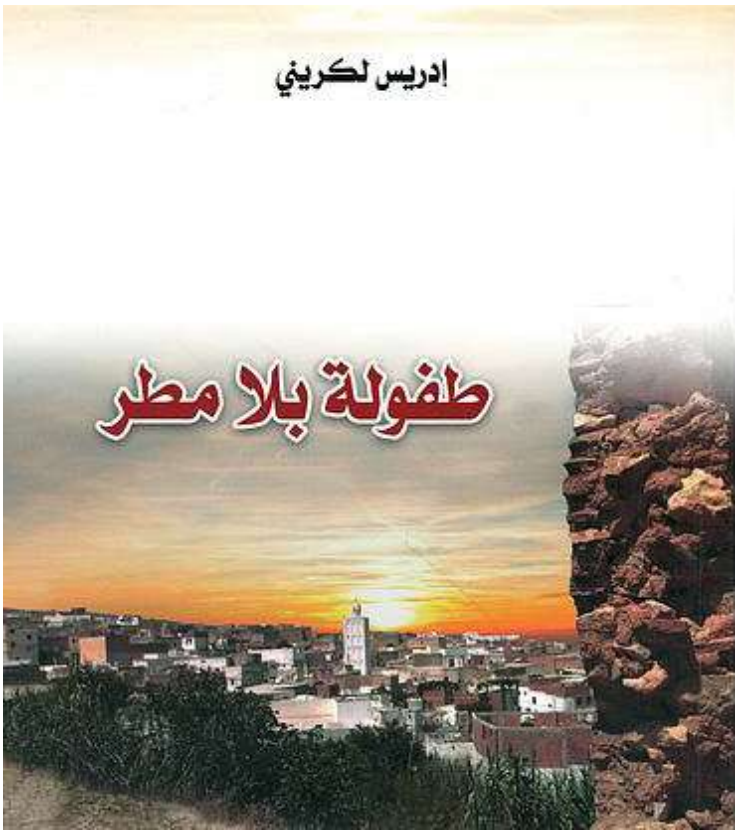

1/2

إنجاز: د الغزيوي أبو علي
دة بن المداني ليلة

السعي إلى المتخيل

يتميز المؤلف بتعدد منابعه الشكلية والمضمونية، حيث يطرح نفسه كجنس أدبي على وجه الخصوص،ولكن تناوله يختلف حسب اختلاف التوظيف والممارسة فهناك من يتناوله من بعد نفسي، أو سميائي أو بنيوي أو سوسيولوجي نصي (سوسيونصي)، وهذا الأخير هو الأقرب إلى فهم مغالقه ومفاتحه، لأن النص يتفاعل مع المحيط الاجتماعي والإنساني، وخاصة في تناوله للأبعاد الدلالية والطقوسية، ويعتبر كولدمان من بين النقاد الذين سايروا الواقع بما فيه من تحولات وتغيرات كما قال في كتابه الإله المختفي، لأن الكاتب ادريس الكريني يقربنا إلى الحياة الاجتماعية والتاريخية، ويدفعنا إلى التفكير في ذواتنا دون الانغلاق، فيختفي التقليد ليولد الإبداع وإنتاج المختلف، لكي تصير الذات لغة وتعبيرا وفكرا متحررا لفهم الوجود من جهة، ومعرفة من نحن إزاء الآخر من جهة أخرى ،لأنه المؤلف يعلمنا تقترب من المضمون والمنسي ،لكي يمنحنا شرعية الانتماء الى الوجود،والحق في الحياة ،معلنا الكتابة لا تتفوض بتاتا بل تمنحنا فرصة أخرى لتأسيس لهذا العالم منطقة الخاص به ،هكذا عمل ادريس الكريني بإنتاج الخطاب للذاكرة ليكونه وجوده وجودا مضادا لذاته ككينونة مغايرة للذات المبدعة ، لأنه المعيار المقدم في هذا المؤلف هو «الهوية لرسم معالم الذات ادريس العريني في مجال التذكر والاسترجاع فتح الباب أمام إعادة قراءة الذاكرة كوجود فرداني الذي يؤسسه لنفسه التفكير المضاد والمخالف، لا كمفهوم مجرد ومالوف، فالتنوع إذن هو خطاب مؤشر على صيرورة جديدة للذاكرة.

فاللامفكر فيه هو التفوير لبنائه الإشكالي، جاعلا من الذات جسرا للعبور نحو قضايا إنسانية مختلفة من قبيل التساؤل عن وجوده في الزمكان وعن إمكانية استحالة معرفته، فوجود الأنا المضاد يتربع البعد الجسدي الذي يرتبط بالأسرة وبالواقع وبالحياة والوجود، حيث يؤسس لمجال طرح أسئلة حول الخيط الناظم للقضايا الإنسانية التي يثيرها المؤلف (الهامش / المركز – المدينة / القرية) فوجود الهامش هو وجود مرتبط بالمركز لأنه هو الذي مدنه وأخرجه من مرحلة الكمون إلى مرحلة الوجود دون إحساس بالغثيان كما يرى سارتر، فالمؤلف قدم لنا رؤية لتشييد مقاومة ضد الفناء وضد الانغلاق الوجودي من أجل بناء خطاب حداثي محدد حول الذات لأن المفاهيم الموظفة سواء الفنية أو الجمالية أو المكانية أو العرضية والموضوعية والمطلقة والنسبية، كلها بناءات تجسد لنا عناوين انثربولوجية التي تنقلنا من كونها ألفاظ وغير إلى مستوى أطر تصير الذات تفكيرا وطريقا إلى مقاومة المنسي، لأن الاحتكام إلى المستقبل المدني هو الذي يخفي كل تقليد يقودنا إلى إبداع جهل أو محاسبة للذاكرة، لذا يصير التفكير عنده عبارة عن محاورة سقراطية تحصل الذات على جذريتها ولا فضيلتها، فالقيمة المشيدة للذات هي انسلاخ عن الماضي لكونه يعترف بالتعارض وبالمنطق المخالف فعليا ودائما، وإذا عدنا مرة أخرى إلى المؤلف الذي هو موضوع للتفكير، لأنه يهدف إلى تأسيس رؤية حداثية لتكون طهارة للذات، فادريس الكريني يقربنا إلى بوذا وزارديشت لأنه يقربنا من تصور فيلسوف صوفي وحداثي يعيش في أفق الحداثة المهيمنة، فالفيلسوف يفكر داخل الهامش لكي يقترب من الحقيقة، إذن يطرح السؤال من هو؟ منطوق به صراحة في مستهل المؤلف، فالمؤلف يطرح التصورات حول الجوانب الطقوسية والاجتماعية والمدنية بالطبع، ومن ثم يتقوى هذا المفهوم المرتبط بالوازع الاجتماعي في إبعاد العدوان عن القرية، وتحقيق التجمع المدني، وقد أثبت ذلك في المؤلف لتحقيق الهداية في نفسه، إلا أن هذا التحقق الفعلي لا يدرك بالاستدلال العاطفي (الأم – العم – الخالة...)، بل بالبرهان المنطقي (الجد – الأب)، كما يقول المناطقة، فالمؤلف إذن يقربنا إلى المرحلة اللاهوتية حيث يفكر بطريقة خيالية وإحيائية كما يرى أوغست كونت وأسطورية ودينية، وكان يفسر لنا ظواهر القرية وفق رؤية خفية مصدرها الذات الطفولية، ولم يكن هناك أدنى اعتراف عقلاني،أما التصور الآخر وخاصة بالانتقال من الابتدائي إلى الثانوي حاول ادريس الكريني تجاوز هذه المرحلة بالعقل وبالوعي والنضج المركب،إذ أصبح الارتكاز على الوصف الدقيق وتكرار العبارات الحواسية والمتغيرات الناضجة، جعلته يوافق بين الطفولة والرجولة والاكتمال الفكري والمعرفي، وتبقى هذه الضرورة التاريخية الطفولية صيرورة نسبية ساهمت في تصوير الفكر الاجتماعي كانعكاس لهذا النظام الذاتي، ولم يعد يعترف بوجود الهامش إلا كاضطراب سلوكي للذات العالمة، بل أسس لنفسه عقلا نقديا لمواجهة الأخلاق، والتربية والدين، وهو يزعم أنه لا يخضع إلا لمؤسسة التربية، هكذا حاول أن يحول الفطري والمكتسب إلى الثقافي لكي يتوحد مع العقل المركب، فالقرية جسدت قيمة رمزية للذات الفردانية والجماعية وقيمة احترامية كمنظومة من الأنشطة الطقوسية المتنوعة، كلها تمثل رمز الكينونة الجماعية والمحورية في حياته، لذا يبقى هذا المؤلف نسق موحد بين التماثل والممارسات ذات الصلة بالأشياء المادية، بمعنى أنها أشياء ذات حرمة (البيت – المسجد – المدرسة)، تتوحد في مجتمع واحد يسمى بني عمار، وعليه فقد توصل ادريس الكريني إلى أن المكان ظاهرة جماعية، وسلطة قبلية تبحث في المشاكل وفي الرغبات الشخصية، لأن المتعالي يتحكمه العقل المرتبط بالرمزي وبالأخلاقي، فهي أصدق آلية يستدعيها لإنجازه هذه الرؤية الإبداعية إذن تستوجب مقاربة هذا الوجود بما وجود خاص وأصيل أو بما هو وجود عام، فالمؤلف يكشف لنا التفكير الذي يؤثر على وجود الأنا كالديناميت كما يقول نيتشه، إننا مع الكريني مدعوون أكثر فأكثر إلى التحلي باليقظة لقراءة هذا المؤلف لجعل المعطى اللغوي هو التركيبة الجديدة للواقع، شكل المتخيل لدى ادريس قاعدة ثورية، واستعارية رمزية وتخيلية، حيث ضمت بين صفوفها معان عدة تؤمن بالتأويل، والتحويل، منحت للمتخيل تماسكه الداخلي الذي أهله للسيطرة والتوظيف والتوليد، حيث يقدم حلا لكل مستويات التناقض في المجتمعات والذوات ولا يرتبط واحدة تتجلى في الاختيارات السياسية والثقافية، بل يوصلنا إلى كشف النواقض والمحددات التي تثقل كاهل الذات الفردانية والجماعية داخل التنظيمات الاجتماعية والسياسية، حيث يشير بكل قوة إلى هذه الوضعية العربية في شكل سؤال يبرز «كيف يمكن أن يتصرف كل واحد من العاملين، أو كيف يتصرف فعلا كي يواجه وضعيته وضغوطاته؟ أية أهداف يلاحق؟ وأي إدراك أو توقع له إمكانية بلوغ هذه الأهداف ضمن البيئة التي يعرف، أي ما هي الوسائل التي يملك، وما هو هامش الحرية التي يتمتع به؟ وبأية طريقة؟ وفي أية شروط وضمن أية حدود يمكن أن يستخدمها؟

إن انتشار هذا الوازع بين نصوصه، جعل المتلقي يشتغل على تفجير كل الاعتبارات التقليدية دون أن يتعامل مع المتن المدروس والمقروء على أنه صياغة جديدة، تتوالد فيها العلاقة بين الذات والموضوع والروائي والسياسي والسوسيولوجي والسيميائي، ويأخذ البعد الروائي تقاطعاته وصياغاته في شكل اختزالات قابلة للقراءة، لأن الرواية ما هي إلا إدماج للتاريخ في السياسة والسياسة في الرواية وإدراج الرواية في التاريخ، هذا الإدماج يتلاحق ببطء، ويكدس مكتسباته ويكتمل بالتدرج ليكون صادقا عند التخوم الغائبة للتاريخ الروائي، وادريس يريد أن يعيد التكوينات المنتظمة التي لا ترتسم إلا في الخطاب الروائي، مشكلة بذلك شروطها التاريخية، لأن نصوصه عبارة عن تناصات وحوارات تعيد الاستنطاق والتجلي، وكذا المسح لكن صياغة غير معقلنة التي تجعل المثقف «يحل التعارض بين اقتناعه بعقلانية وعلمانية وحداثة وإعجابه بها، وما بين العدوانية الفظة التي يمثلها الاحتلال، والتي تخضع عملية التقدم في الوطن وتفسرها في اتجاهات أخرى لتحقق لها أكبر فائض للنهب والاستغلال»، فسلطة المثقف والنص قد أفرزتا بالضرورة سلطة ثالثة تمثلت في السعي إلى المتخيل، لأن ذلك لا يعني قطعا أن سلطة المتخيل والعلاقة بين القارئ والنص، قد ظلت مغيبة، بل أمست العلاقة حوارية مبنية على أسس تنظيرية تخترق الأسئلة سمكها للوصول إلى ما هو قابع في صمت وراءها للحفاظ على صلابتها، وجعلها تنحبس في تعقيدها الخاص بها، يقول جان بول سارتر في هذا الشأن: «وما دامت حرية المؤلف، وحرية القارئ تبعث كل منهما عن الأخرى، ويتبادلان التأثير فيما بينهما من ثنايا عالم واحد فمن الممكن أن يقال: إن ما يقوم به المؤلف من اختيار لبعض مظاهر العالم هو الذي يحدد القارئ»، فتحديد هوية القارئ هو تحديد للمستوى التخيلي المتميز بين جمهور القراء المتعاقبين وبين التلقيات التي تمنح للقارئ صفة الخصوبة، وتضفي عليه صفة الأنوثة بقوله: «وهكذا يكون الجمهور الخاص بمثابة استفهام أنثوي فسيح، إذ هو انتظار مجتمع بأكمله على الكاتب أن يجذبه إليه مستجيبا إلى جميع رغباته،ولكن في سبيل ذلك يجب أن يكون هذا الجمهور حرا فيما يطلب، وأن يكون الكاتب حرا في إجابته»، فعرض المعنى هذا يفسح المجال أمامه للتمييز بشكل راديكالي بين تأويل المعنى ونقد الدلالة، عندما يؤول يشتبك في مناط يتحكم فيه الاحتمال وليس اليقين ولكي يحدد أي عدد من التأويلات الملائمة يطبق ادريس قوانين الاحتمال على التأويلات الأدبية والدرامية، حيث يقدم عرضا لتوقع المعنى شبيه بالمعرفة المسبقة، وللحقيقة التأويلية التي يرى بموجبها أن لا تذبذب بين المتلقي وبين المبدع.

ومن المؤكد أن هذا المتخيل يفعل إيقاعات تجريدية التي تستهدف فهم العالم والإنسان، لأن عملية انتقال من البساطة إلى التركيب لا يتم إلا بالقراءة الإنتاجية الباطنية التي تستبعد الوصف والشرح الكلاسيكي، «فالنصوص المحفوظة» في لحظة تحققها تفتح ذاتها على سلطة التمسرح والتأويل إلى درجة أن تصور نصوص روائية من وجهة نظر كلاسيكية تظل مرتبطة بسلطة التحقق الفيلولوجي، وسلطة الدليل المغلق على ذاته، الشيء الذي جعل التصور إقرائي للنصوص الكلاسيكية عقيما يتصل بوهم تحليلي بسيط لا يتجاوز حدود الموروث القديم، لكن مع التحولات الحديثة في الستينات من القرن الماضي، سيعرف الحقل الروائي تصورا مغايرا للنص وللإيديولوجية، ولم تعد القراءة ذلك الحدث البسيط الذي يمر به البصر مر الكرام، ولا هي قراءة استهلاكية، بل هي تلك العملية التي لا تنقب عن المعنى السطحي، وإنما تتسلل إلى بواطن النص، وطبقاته الرخوية لتكشف لنا عن كل الأنوية النصية والدرامية والجمالية، يقول ميشيل فوكو «لا أريد أن أقحم نفسي في هذا النظام الشائك للخطاب، لا أريد أن أرتبط بحده الفاصل ولا بحده القاطع، أريده من حولي شفافية هادئة عميقة مفتوحة بدون حدود،،من خلالها يمكن للآخرين أن يردوا على انتظاري، ومن خلالها أيضا يمكن للحقائق أن تشرق واحدة بعد أخرى».